مصادر البحث اللساني
عند عبد الرحمن الحاج صالح

د/ محمد كمال بلخوان
المدرسة العليا للأساتذة - مستغانم -
kamel.belkhawane@univ-mosta.dz

الملخّص:

تفرض معادلة البحث العلمي على الباحث الغض أو المتمرّس على السواء استيعاب المادة العلمية التي يتناولها ثم البحث في مظانها المعرفية بالإضافة إلى التّحكم في مجالها الإجرائي أو علاقتها بواقعها ، وبذلك يكتمل استيعاب المعرفة العلمية.

وإذا سلمنا منهجيا أنّ مصادر البحث عند عالم من العلماء تمثّل في جوهرها اللّبنة الأولى والأساسية في صياغة المعرفة العلمية لديه، فإنّها في نفس الوقت تحيل إلى وعيه بالأصول الأولى والمنابع الأصيلة لهذا العلم.

نحاول في هذا البحث أن نقف عند المصادر والمنابع العلمية التي أطّرت التفكير اللساني عند عبد الرحمن الحاج صالح إذا تأكدنا مبدئيا بأصالة بحثه اللساني كما أسس هو ذاته مفهوم التأصيل.

الكلمات المفتاحية: مصادر البحث - المخطوط - الترجمة - المراجع.

التأصيل اللساني ومصادر البحث العلمي:

أفرزت في مرحلة التلقي العربي للسانيات الغربية مقولةُ التراث اللغوي العربي إشكالية منهجية ومعرفية في البحث اللساني العربي عامة، فانحاز تيار للتراث وآخر للسانيات الغربية بكل ثقلها المعرفي والمنهجي، وتيار ثالث حاول التوفيق بينهما، ومع ذلك اختلف التعاطي مع التّراث من جهة ومع اللسانيات الغربية من جهة ثانية، فيمثل الأول ميراث أمّة تشكّل من خلال استنطاق نصها المقدس، ويمثّل الثاني رافدا من روافد التفاعل الحضاري الذي وصلنا عن طريق التّرجمة، فظهرت في الساحة العلمية والثقافية العربية ثنائية " الأصالة والمعاصرة "، فأضحت معادلة البحث العلمي تترنّح بين إذا كنت تراثيا فإنّك بالضرورة ترفض الدرس اللساني الغربي، أو كنت لسانيا معاصرا فإنّك بالفطرة مشكّكا في إمكانات التّراث اللغوي العربي.

وعليه فقد رفض البروفيسور عبد الرحمن الحاج صالح معادلة "الأصالة والمعاصرة" التي تداولها الفكر اللساني والنقدي العربي يقول: ((فأمّا الأصالة فإنّنا لا نشاطر نظرة الكثير من

المثقّفين عندما يقابلون هذا المفهوم بالحداثة أو المعاصرة فإنّ الأصالة تقابل في الحقيقة التقليد أيًّا كان المقلَّد المحتذى به سواء كان العلماء العرب القدامى أو العلماء الغربيين.))(1)، بهذا النقد يؤسّس الدكتور الحاج صالح لمنهج علمي يمحّص التّرات اللغوي العربي والتفكير اللساني الحديث من ما خالطهما من الشوائب المعرفية غير الدقيقة، ولا تدفعه جدّة النظرية إلى اعتبارها النموذج العلمي الأمثل الذي لابد من اتباعه، ولا قدم الفكرة إلى رفضها وتجاوزها، بل لا بد أن ننظر إلى التراث اللغوي والبحث اللساني بعين التأصيل.

وإذا حاولنا أن نرصد علاقة مفهوم التأصيل عند الحاج صالح بمصادر البحث نلفي النّص التالي: ((...أنّ الباحث الأصيل وهو الذي إذا طرق موضوعا قصد منابعه الأصيلة وأمعن النّظر في مظانه الأولى أي فيما تركه المعني بهذا الموضوع نفسه لا فيما رواه عنه غيره بعد مضي خمسة قرون.))(2)، وفق هذا النّص فالباحث الأصيل هو الذي ينقّب عن المعرفة الأصيلة باستحضارها ومن منابعها الأولى، لا اعتمادها منقولة من مراجع أو مدونات وقد آل إليها التصحيف والتحريف والتزييف.

ولهذا التّوجه في جوهره إطار نظري يؤسسه وآخر إجرائي، نحاول الكشف عن هذه الملامح النظرية والإجرائية من خلال منجزات الحاج صالح.

من المبادئ النظرية التي اعتمدها الحاج صالح في قصد المنابع الأصيلة هي:

1. **عدم الاكتفاء بالمطبوع والاعتماد على المخطوط:**

من المزالق المعرفية التي وقع فيها مختلف الباحثين هو الاكتفاء بالمصادر والمراجع المطبوعة دون محاولة للبحث عن المخطوط أولا والبحث فيه ثانيا، ممّا ولّد فكرا خديجا بعيدا كل البعد البحث العلمي الدقيق. يقول: ((وتتّصف الكثير من البحوث أيضا بعيب آخر وهو عدم الشمولية فيما يخصّ المراجع فقد يكتفي البّاحث بالعدد القليل من المراجع ويبني عليها نظرية كاملة بل قد يكتفي بما هو مطبوع ولا يذكر من المخطوطات إلّا القليل.))(3)

يرى الحاج صالح أنّ الرجوع إلى المخطوط قد يوجه الباحث توجيها صحيحا نحو الحقيقة العلمية - أو ما تمّ تحقيقه - حديثا ويفصل في بعض القضايا الشائكة والخطيرة التي تتعلق بالبحث اللساني. ومن القضايا التي استعان فيها بالمخطوط لبحثها؛ قضية التأثير الأرسطي في نشأة النحو العربي وذلك بالرجوع إلى المخطوطة التي تأكد الباحثون من نسبتها إلى ابن المقفع يقول : ((سبق أن ذكرنا ما حدث منذ زمن غير بعيد عن العثور على ثلاث نسخ مخطوطة تحتوي على تلخيص لثلاثة كتب في المنطق لأرسطو باللغة العربية وهي: كتاب المقولات " قاطيغوريا"

المدرسة العليا للأساتذة - مستغانم -

والعبارة "باري أرمينياس" والتحليلات الأولى (أنا لوطيقا الأولى) .... لابد أن يكون هو المرجع لكل ما عساه أن يقوله الباحث في التأثير المبكّر أو عدمه))(4)

وقد استعرض الحاج صالح ما جاء في المخطوط والتحقق منه، باعتباره الطريق الوحيد الذي يمكن أن يلج الفكر الأرسطي في النحو العربي وبخاصة في هذه المرحلة أي بوفاة ابن المقفع في 139هـ.

2. الاعتماد على الكتب العلمية لا شبه العملية:

من الهنات التي يقع فيها بعض الباحثين أثناء إعداد بحوثهم العلمية هو الاعتماد على كتب شبه علمية - حسب تعبير الحاج صالح- ويقصد بها كتب الآمالي والمجالس مثل كتاب الأغاني، التي ألفت عادة للتسلية والسمر في ذكر الأخبار والنوادر، ولا يتقيد صاحبها بتحري الدقيق من المادة المعرفية التي يوردها يقول عبد الرحمن الحاج صالح: ((وينبغي أن نلاحظ أنّ هذا النّوع من الحديث غايته التسلية وليس العلم إلا القليل ولذلك فلا يمكن أن نثق بما تحكيه هذه الكتب من الأخبار والمُلَح والطُّرف وقد اتبعهم في ذلك الكثير من مؤلفي الآمالي والمجالس. وأدل دليل على ذلك هو الشكل القصصي الذي تتّصف به غالبا الحكايات المنسوبة غالبا إلى الأصمعي))(5) وقد تتبع عبد الرحمن الحاج صالح بعض التشوهات المعرفية والتاريخية التي جاءت في كتاب الأغاني للأصفهاني والتي أثّرت في توجيه البحث العلمي منها قوله: ((وهذا من فضائح صاحب الأغاني فعكرمة هذا قرأ عليه أبو عمرو القرآن والحارث أخوه وقد ولد أبو عمرو حوالي 70 فكان في سنة 75 حين ولي الحارث بن خالد مكة ابن خمس سنين ! ولو فرضنا أنّه ولد قبل ذلك فكيف يمكن أن يكاتب شاب لا شأن له والي مكة ويسأله عن الحروف - وهو شاعر وليس من القرّاء - وقد روى هذا الحادث ابن مجاهد مثل ما رواه صاحب المراتب.))(6) ويرتبط هذا الهامش في سياق حديث الحاج صالح عن التّحري بالمراسلة التي كان يلجأ إليها أبو عمرو، وقد احتج الرجل بمصادر علمية أخرى أثبت خطأ ما ذهب إليه صاحب الأغاني منها "مراتب النحويين" لأبي الطيّب اللغوي وكذلك كتاب " السبعة لابن مجاهد" ونورد النّص لأهميته برغم طوله: ((وكان أبو عمرو يلجأ أيضا إلى التحري بالمراسلة، فقد حكى أبو حاتم قال:" وكان أبو عمرو يكتب إلى عكرمة بن خالد في مكة ويسأله عن الحروف" (مراتب،35) والمشهور عن "الحروف" أنّها القراءات القرآنية ... وهذا أولى لأنّ أبا عمرو ممن عرضوا القرآن على عكرمة وقد توفي في 115 وتلاعب صاحب الأغاني بالحقيقة جعله يخلط بين عكرمة وبين الحارث بن خالد العاصي ولي مكة وهو أخوه.))(7)

وبرغم هذا التحفظ في توظيف المصادر نجد في سياقات أخرى الأستاذ الحاج عبد الرحمن يعمد إلى هذا النوع من المصادر ومنها كتاب " الإمتاع والمؤانسة" للتوحيدي، باعتبار هذا

المصدر كما يصرّح بذلك عنوانه لا يتقيّد بالضوابط العلمية المحضة، ذُكر الكتاب في سياق حديث عبد الرحمن الحاج صالح عن تأثر النحاة بالمنطق الأرسطي، حيث ذكر المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرفي النحوي وأبي بشر متّى المنطقي. ولم يكتف بهذا المصدر بل ذكر ما قاله الشافعي وابن تيمية والسيوطي في كتابه "صون المنطق" حول أثر الفكر اليوناني في النّحو العربي، وقد استشهد الحاج صالح ببعض النّصوص من كتاب " الامتاع والمؤانسة" ما نصّه : ((بتصفح الأخير قول الأول واستيلائه على ما فاته)) في سياق حديثه عن النظريات العلمية التي لا يمكن أن تصمد أمام الزمن، إذ النظرية هي التي تتكيّف مع التطور المعرفي فتغيّر من منهجها أو تطوّر مصطلحاتها.

3. توظيف المعاجم:

لقد أشار عبد الرحمن الحاج صالح في مواضع مختلفة في دراساته وبحوثه إلى عدم التعويل على الدلالة الوضعية في المعاجم، وقد يؤدي الاعتماد عليها في التأسيس العلمي إلى الابتعاد عن الصواب، جاء في الهامش ما نصّه: ((والغريب أن أكثر المستشرقين- كما قلنا في مقدّمتنا - يهتمون دائما بالمدلول اللغوي الوضعي (المعجمي) للمصطلحات حتى جعلوه الأساس في بناء أقوالهم ولا يحاولون أن يكشفوا عما قصده بالفعل العلماء العرب في استعمالهم لمصطلحاتهم. فهذا منهج غير موضوعي ومن ثمّ غير علمي))(8)، وقد أورد الحاج صالح أمثلة علمية في عدم تفريق الباحثين بين الفصاحة اللغوية والفصاحة البلاغية، إذ لا تقدم المعاجم مهما اختلفت أي فرق بين المصطلحين، فلذلك نجد القدماء استشهدوا بكلام المنتج بن نبهان السدي ولم يستشهد بكلام بشار بن برد، فالأول فصيح فصاحة لغوية والثاني فصيح فصاحة بلاغية. يقول الحاج صالح عن هذا الخطأ: ((والأمثلة بهذا الصدد كثيرة جدا وبهذا يتّضح أن تحليل النّصوص لا يبنى على البحث عن معاني الكلمات في المعاجم، بل على البحث عمّا قصده بالضبط منها أصحاب هذه النّصوص بالرجوع إلى ما قالوه هم أنفسهم لا ما قاله غيرهم، وذلك لأنّ المعاجم لا يسعها أن تدلي بكل ما يمكن أن تدل عليه المفردات لأنّ من وراء المعاني الوضعية المقاصد الخاصة ولا سيّما المعاني الخاصة بعلم من العلوم أو بنظرية من النّظريات))(9)

وقد أسس الحاج عبد الرحمن منهجا يستطيع من خلاله تجاوز هذا الخلل في التعامل مع دلالة الألفاظ ونعتها بـ " المقابلة الدلالية " وهو أخذ المعنى المصطلح من النصوص العلمية بعد القيام بمسح كلي للنص لاستخراج المقصود الأساسي من المصطلح. وقد وظّف هذا المنهج في تحديد مفهوم الفصاحة، يقول:((فيمكن أن نمثّل لذلك بلفظة " فصاحة" ويشتق منها فما هو الغرض من الفصاحة عند سيبويه ومن عاصره إلى عصر الجاحظ؟ نبدأ أوّلا باستقراء الكتاب ومسحه كما قلنا مسحا كاملا حتى نجمع كل السياقات التي وردت فيها هذه المادة بمشتقاتها

))(10) وبعد استقراء المادة من الكتابين - "الكتاب" و"البيان والتبيين" - تبيّن له الفارق المفهوم في المصطلح بين زمنيين.

عدم الاعتماد على الكتب والبحوث المترجمة:

شكّلت الترجمة منذ زمن غير قريب مصدرا من مصادر هجرة النّصوص عبر الحضارات والأزمنة، وهي سمة من سمات الانفتاح العلمي والحضاري، وعن طريقها تسلل المفاهيم والعلوم، الباحث في أي علم من العلوم يستوجب عليه وهو يشرح المعرفة أو يؤسس لها أن يتقن اتقانا لغات أخرى ينتقي منها معرفته، وإذا قام بفعل الترجمة بأنّه يقوم بذلك انطلاقا من وعيين علميين وهما التحكم في آلية الترجمة بالإضافة إلى المعرفة الدقيقة بمجاله العلمي، والمتتبع للمنجز اللساني المترجم يجد تعدّدا واختلافا ومزالق ترجمية تشوّه عادة البحث العلمي، ويتلقى بذلك المتلقي معرفة مشوّهة.

أمّا بالنسبة للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح فإنّه أتقن لغات أخرى وبها تلقى المعرفة اللسانية الغربية، وعلى أساسها شرح وقدّم ونقد وأشاد بكل فكر لساني وجده متميّزا، وقد ذكر الحاج صالح نصا استجلبه من مصدر باللسان الفرنسي وهو كتاب: " *A. Dauzat, La Philosophie du Langage.*" وجاءت ترجمته كالتالي: ((لكل علم نهج يتميّز به عن غيره على حسب موضوعه ووسائل البحث التي أتيحت له. ويصير هذا النّهج شيئا فشيئا معلوما به عندما يصير العلم - وقد خرج من طور التّحسس - مالكا لعنانه محصّلا على جملة من النتائج يمكن أن يضمن له قيمة أساليب بحثه. وللأخصائي في كل فن من فنون المعرفة أن يستكشفه ويجمله وذلك بعد أن يستخبر الفلاسفة.))(11).

وتوظيفا للمبدأ الذي أقرّه الحاج عبد الرحمن والمتمثل في العودة إلى المنابع الأصيلة للبحث، عدنا إلى المصدر الذي ذكره والنص الذي ترجمه، يقول: ((*Chaque science a une méthode distincte, suivant son objet et ses moyens d'investigation; cette méthode devient consciente peu a peu, lorsque la science, sortie de la période de tâtonnements, et définitivement maitresse d'elle-même, et a obtenu une somme de résultats qui permet de cautionner la valeur de ses procédés de recherches. C'est au technicien, dans chaque ordre de connaissances, qu'il appartient de la dégager et de la synthétiser, après s'être instruit auprès des philosophes.*))(12)

قد لا ندعي في هذا المقام العلمي المعرفة المطلقة بأصول الترجمة كما صاغها أهلها، ولكن أيَّ مقاربة لفظية أو أسلوبية بين النّصين تسمح لنا بالكشف عن براعة الحاج صالح في

نقل النّصوص من مصادرها محافظا على دلالة اللفظ في سياقه المعرفي، ومحاولة إيجاد صياغة أسلوبية عربية تنقل المضمون بأمان وصدق. وإذا تأملنا لفظ " *tâtonnements,* فإنّه يحيل في دلالته الوضعية على التلمّس لمعرفة الأشياء في الظلام أمّا في مجال المعرفة العلمية فقد وظّف الحاج صالح لفظ التّحسس الذي لا يحمل تلك الدلالة المادية للفظ التّلمس. كما فضل كمعادل ترجمي للتركيب الفرنسي "*définitivement maitresse d'elle-même* " قوله: " مالكا لعنانه " .

والمتتبّع لهامش الحاج صالح في منجزه اللساني يلفي عددا غير قليل من البحوث والمقالات العلمية وبلغات مختلفة رجع إليها الأستاذ قصد تتبّع المسار التّطوري للمعرفة وكذا استجلاب المعرفية العلمية من مظانها الأصلية والأصيلة ومنها: ((انظر ما كتبه *J.P. Désclés* في مجلة *Informatique* نوفمبر 1982 العدد: 164، ص: 66-77، العنوان: *Traduction automatique: respecter d'abord la linguistique*.))(13) وغيرها كثير يمكن الرجوع إلى كتب عبد الرحمن الحاج صالح - رحمه الله –

الخاتمة:

تبيّن لنا من خلال هذا البحث أن البروفيسور الحاج صالح استطاع بكل وعي صياغة مفاهيم تأصيلية أطّر بها بحثه اللساني، ويعتبر الرجوع إلى النّصوص الأصلية والأصلية كما جاء بها أصحابها لا كما نقلت عنهم مسلكا علميا متميّزا تقي البحث العامة من مزالق التأسيس المشوّه للبحث اللساني العربي القديم، فالاستعانة بالمخطوط والبحث في دلالة الألفاظ والمصطلحات في بيئتها المعرفية وسياقتها اللغوية واستجلاب المعرفة بلغتها الأصلية ونقلها إلى اللسان العربي بكل وعي معرفي ومنهجي هو في جوهره نقطة الارتكاز في التفكير اللساني عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح.

الإحالات:

(1) الحاج صالح عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،ج:1، موفم للنشر، الجزائر 2012، ص:11.

(2) الحاج صالح عبد الرحمن، نفسه، ص: 17.

(3)الحاج صالح عبد الرحمن، نفسه، ص: 16.

(4)الحاج صالح عبد الرحمن، منطق العرب في علوم اللسان، ص:58 -59.

(5)الحاج صالح عبد الرحمن، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2007 ص: 380

(6) الحاج صالح عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 388.

المدرسة العليا للأساتذة - مستغانم -

(7) الحاج صالح عبد الرحمن، نفسه، ص: 388.

(8) الحاج صالح عبد الرحمن، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص: 175.

(9) الحاج صالح عبد الرحمن،بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج:1، ص: 19.

(10) الحاج صالح عبد الرحمن،نفسه، ج:1، ص: 18.

(11)الحاج صالح عبد الرحمن،بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج:1، ص: 51.

(12) Albert Dauzat , La Philosophie de Langage, Paris, Ernest Flammarion, Editeur, 1917, p: 199 - 200.

(13) الحاج صالح عبد الرحمن،بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج:1، ص: 232.